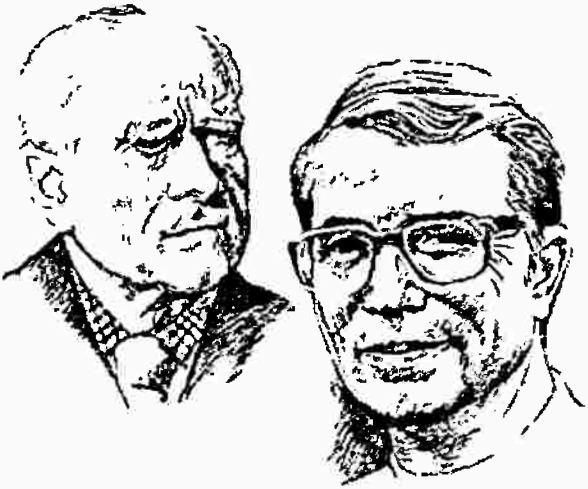

الحلقة السابعة

ألبرتو مورا فيا
كولن ويلسون

كان القرن العشرين إجمالاً هو قرن «المعجزات» العلمية و«الويلات».. قرن التقدم والحروب الكبرى.. قرن الإيديولوجيات والفلسفات.. قرن الصراع بين اليسار واليمين، ورغم أنه سبح في بحار غزيرة من الدماء.. بعد أن بلغ عدد ضحايا حربيه العالميتين الأولى والثانية فقط ما يزيد عن خمسين مليوناً من البشر جلهم من شباب ورجال دول أوروبا الغربية، حتى أصبح سائقو الشاحنات والحافلات وعربات الأجرة فيها من النساء، إلا أنه كان قرناً حافلاً بعشرات العباقرة والمبدعين في سماء الفكر والفلسفة والأدب والمسرح والموسيقى والغناء والتشكيل.. وكأن تلك الحربين بآلامهما المروعة هما البوتقة التي صُهروا فيها، ليخرجوا من وسط الخرائب والدماء والدموع ليكتبوا فكراً وأدباً ومسرحاً.. وليعزفوا ويغنوا ويرسموا.. بما لم يُأت بمثله حتى الآن بصورة عامة..

ولأن العالم العربي والإسلامي كان في قلب تلك الحربين وما سبقهما وما تلاهما.. فقد كان نصيبه من أولئك العباقرة في الفكر والأدب والفنون ليس بأقل كثيراً من أوروبا، وبالتأكيد فإنه

كان أكثر من أولئك الذين ظهروا ولمعوا في الأمريكتين: الشمالية والجنوبية إلى حد ما.

لقد صعد كل هؤلاء وأولئك عالمياً.. ليصبحوا بحق نجوماً لا تنطفئ، وشموساً لا تغيب.

وسأقف.. عند ثلاثة من أولئك النجوم في سماء الفكر والأدب والفن من دول أوروبا الغربية: من إيطاليا، وبريطانيا، وفرنسا..

* * *

الأول.. هو الكاتب والروائي الإيطالي الأشهر: ألبرتو مورافيا.. الذي عرفه العالم ولم يعرفه عالمنا العربي بعد روايته الأولى المناهضة لفاشية موسوليني: «الحفل المقنع».. ولكنه عرفه بعد روايته الذائعة الصيت: «امرأة من روما» التي تُرجمت إلى كل لغات العالم الحية، والتي قدمتها السينما الأمريكية.. في زمن السينما الأمريكية الجميل في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، والتي كانت تحكي قصة حياة فتاة من فتيات روما.. هي: «أدريانا» الجميلة الفقيرة والبائسة.. التي تعمل «موديلاً»، ليرسمها الرسامون بليرات معدودات وهي تغتصب ابتسامتها لهم صباح مساء.. بينما كانت تقبع خلف تلك الابتسامة مأساتها التي هزت الإيطاليين والعالم كله بعد أن قرأها، أما بعد ظهور رائعته رواية «السأم».. فقد عرفه وقرأه العالم كله من أقصاه إلى أقصاه مبهوراً بـ «الرواية» وأحداثها.. ومأخوذاً بـ «مقدمتها» الرائعة التي نافت عن ستين صفحة، والتي شرح فيها «مورافيا» بقلم الأديب

وروح الفنان وعقل الفيلسوف معنى «السأم» الذي كان يقصده، وأنه أكبر من «الطفش» و«الملل» العاديين اللذان يعاني منهما بعض الناس لبعض الأوقات في كل أصقاع الدنيا.. فهو «الحيرة» في فهم ما حدث ويحدث، وهو البكاء عليه، وهو الخوف منه ومن الغد المجهول الذي قد يعيدهم إلى مستنقع الدماء الذي أفنى البشر والزرع والضرع والعمران وتلك المهج الحالمة بمستقبلها الذي لم تره، وهو القلق.. الذي أيقظ الناس من سباتهم ليسألوا من جديد عن معنى وجودهم؟ وعن معنى الحياة والموت؟ فـ «السأم».. هو كل ذلك الذي يفضي بالناس إلى حالة من التبلد واللامبالاة تصرفهم عن كل أمل وعمل. كانت الرواية تشخيصاً بارعاً دامعاً لما عانته أوروبا على وجه الخصوص، والعالم في عمومه بعد الحربين العالميتين اللتين أريقت فيهما دماء الملايين بقسوة ووحشية لم يعرفهما تاريخ الإنسانية من قبل.. دون ما هدف أو غاية.. غير غاية التسلط والهيمنة ورسم حدود دول ما بعد الحربين وإمبراطورياته!!

وبقدر ما كانت رواية السأم.. عظيمة، كان استقبال القراء والنقاد لها.. أعظم، فقد رأى القراء فيها على اختلاف مستوياتهم الثقافية.. أنها تعبير عنهم، وعن حالهم.. وعن ضياعهم.. وعن موت الرغبات في نفوسهم.. بينما رأى النقاد فيها.. أنها عمل أدبي فريد نادر لم يسبقه إليه أحد، وأن مكانها الطبيعي.. هو أن تقف إلى جانب أمهات الروايات، كـ «الحرب والسلام» لتولستوي، و«قصة مدينتين» لـ «ديكنز» و«الأم» لجوركي.. فكان طبيعياً أن يحصل بها «مورافيا» على نوبل للآداب.. لكن الجائزة العالمية تخطته إلى

شاعر متواضع غير معروف من أبناء جلدته هو: الشاعر سيلفادور كوازيمودو.. الذي لم تنفعه ولم ترفع اسمه بعد الحصول عليها، وعندما سئلت هيئة الجائزة.. عن أسبابها فيما فعلت؟ وكيف تخطت «مورافيا» وهو الأحق.. إلى «كوازيمودو» الذي لم يكن يعرفه أحد؟ لم يكن لديها جواب مقنع إلا أن تقول: السبب.. هو أننا نحب كوازيمودو..؟!

■ إن ثاني النجوم الثلاثة.. هو الكاتب البريطاني العبقري الشاب: «كولن ويلسون».. الذي صعد إلى سماء الخلود بصاروخ.. أو هبط على قمتها بمظلة في أوائل النصف الثاني من القرن العشرين.. وكان صاروخه هو مظلته.. هما كتابه الفريد بحق: «اللامنتمي» كما ترجمته دور النشر اللبنانية.. أو «الخارجون» كما هي ترجمته الحرفية لمن يعرفون الإنجليزية..

لقد كان الكتاب والكاتب.. مفاجأتين للبريطانيين عموماً.. ولأبناء عاصمتهم الكبرى «لندن» خصوصاً، بجامعاتها ومعاهدها ومراكزها، وصحفها ومكتباتها ومسارحها ودور السينما فيها، فلم تعرف كل هذه الأوساط العلمية والثقافية فيها.. شيئاً عن هذا الكاتب الشاب الذي ظهر فجأة.. وبيده كتاب هو الأول من نوعه، في موضوعه، وفي استشهاداته، وفي استرجاعه لأعمال وتجارب عشرات من المبدعين في أوروبا وأمريكا.. وفي مبيعاته إذ تخطى فور صدوره كل ما سبقه من الكتب.. بل وبعد أربعة أشهر - فقط..!! - كانت قد أعيدت طباعته عشر مرات حتى لم يبق أحد من المثقفين وطلبة العلم والعاديين من الناس.. إلا وقرأه.

إن هذا الكاتب الشاب الذي ظهر فجأة.. هو أحد أبناء أحياء لندن الفقيرة فيما يعرف بـ «الويست إند» أي الطرف الغربي من المدينة، وقد كان فقيراً كالحي الذي يسكنه... ولذلك لم يتمكن من الذهاب لا إلى جامعة أكسفورد أو كامبريدج الشهيرتان.. أو إلى غيرهما، ولكنه اكتفى بتعليمه الثانوي.. ثم أخذ يتردد في ساعات فراغه على «مكتبة المتحف البريطاني»: يقرأ ويفكر ويتأمل.. ثم يعود إلى عمله المتعدد والمتنوع والمتغير من حين لآخر، فقد عمل بأصغر المهن وأقلها شأناً.. وربما كان من أفضلها عندما عمل «نادلاً» بأحد المقاهي، ولكن كان في قلبه شيء.. وفي عقله شيء.. وفي أحلامه أشياء..

لقد ساعدته قراءاته الطويلة.. وساعات صمته وتأمله في مكتبة المتحف دون شك.. على أن يستلهم منها ما يريد، فكان هذا الكتاب: «اللامنتمي» الذي خرج بعد خمس سنوات.. فأثار عاصفة في كل الأوساط الثقافية حتى قال عنه أحد النقاد مغتاظاً بأنه لا يصدق «أن مؤلفه فتى في الرابعة والعشرين من عمره»..!؟

والعجيب حقاً.. أن هذا الكتاب الذي حقق كل هذه الشهرة الكاسحة وعلى مستوى العالم كله. لم يكن رواية أو قصة أو مسرحية أو حتى ديوان شعر.. ولكنه كان «دراسة تحليلية» لـ «هموم» المثقفين النفسية في القرن العشرين.. من خلال قراءة عميقة متأملة في أعمال كوكبة من أبرز وأعظم كتابه: من كامو وكافكا وهيمنجواي.. إلى ديستوفسكي وهيرمان هيس وجويس.. ومن وليم بليك إلى تولستوي وبرنارد شو.. إلى عشرات غيرهم..

واستخلاص لشخصية «اللامنتمي» هذا من خلال تلك الأعمال، ومن خلال حيوات مبدعين كباراً من أمثال ڤان كوخ، وڤاز لوف نجنسكي وتومس لورنس وغيرهم..

فمن هو هذا «اللامنتمي» الذي وجده.. أو الذي كان يبحث عنه ثم عثر عليه في كتابات هؤلاء وأعمالهم؟

إنه «إنسان يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واه».. ولذلك فهو يرفض الحياة والكثيرون منهم يعادونها.. بل ويرون أن الإنسان فيها «يجرجر ظله العملاق في طريقه المظلمة: مستسلماً حيناً ومتمرداً حيناً آخر».. و«أن الزمن كالجدول الجاري أبداً، الذي يحمل أبناءه سعيداً.. وهم يتلاشون كما يتلاشى الحلم عند مطلع الفجر».. ومع ذلك فإن هؤلاء اللامنتمين إلى أي شيء يبحثون جميعاً عن خلاصهم..

إن سر أسرار النجاح في كتابه المدوي.. أنه كان عميقاً.. وكان شاملاً.. وأن «ويلسون» كتبه بعذوبة وشفافية من يتقاسم مع أولئك اللامنتين همومهم وأحزانهم.. لأنه واحد منهم!!

* * *

لقد كان من حسن حظي.. أنني التقيت بالأول: «مورافيا» في بيته بروما على نهر التيڤري، وأنني بعثت لـ «كولن ولسون» بأول محرر عربي ليجري معه حديثاً عنه وعن كتابه.. لأكون قارئه الأول.